لغة الموسيقى كأداة للتعبير الفني

زرياب المتوفى سنة 238 هـ.

الأستاذ سعيد الديوه جي

عضو المجمع العلمي العراقي

ابو الحسن علي بن نافع مولى امير المؤمنين الخليفة المهدي بن المنصور العباسي ، كان اسود اللون ، حلو الشمائل ، جميل الصوت ، فصيح اللسان ، فلقبوه « بزرياب » تشبيها له بطائر غرد ، حسن الصوت ، يقال له « زرياب » . نشأ زرياب في بغداد ، وهي اذ ذاك : دار السلام ، وقبة الاسلام ، مقر الخلافة ، ودار العلم والادب والحكمة ، ومجمع اهل الفنون والصناعات ، حاضرة الدنيا وما سواها بادية ، وهو ما حمل الامام الشافعي (رض) ان يقول لمن لم ير بغداد : « ما رايت الدنيا ولا الناس » .

وزرياب يتقلب في قصور الخلافة ، وما فيها من ترف ونعيم ، وخمائل باسقة ، وازهار عبقة ، وجنات تجري من تحتها الانهار ، وملاعب تميس فيها كواعب ، قد جمعن الظرف والادب ، والفن والجمال والدلال .

كن فتنة الناظر ، وغرة العابر ، وخل المقيم ، مما حمل الكتاب والشعراء ان يهيموا بوصفها ، واتخذوا من حدائقها وملاعبها المسارح التي مثلت فيها فصول « الف ليلة وليلة ».

في هذا المحيط الزاهي نشأ الفتى زرياب ، الذكي الفؤاد ، الدقيق النظر ، الصافي البصيرة ، فكان يتقلب في نعيمها ، ويتفيأ ظلالها ، ويستمع الى كواعبها ، ويتصل بمن يرتادها من اهل الادب والفن ، فيقتبس من علمهم ، وينهل من ادبهم : يأخذ احسن ما يسمع ، ويختار خير ما ينفع ، فحصل على ثقافة جامعة في الادب والعلم والفن ، ولكنه كان يؤثر الغناء على غيره ، وله من صوته الجميل خير مساعد .

لازم اسحاق الموصلي ـ استاذ المغنين في عصره ـ ليأخذ عنه ما لم يجده عند غيره . واسحاق الموصلي : من علماء عصره ، ومكانته من العلم والادب والشعر ما يقول عنها ياقوت الحموي : « لو اردنا استيعابه لطال الكتاب ، وخرجنا عن غرضنا من الاختصار . ومن وقف على الاخبار ، وتتبع الآثار علم موقعه » .

كان يدخل على المأمون مع اهل العلم والادب والرواة ، ثم كان يدخل مع الفقهاء ويده في يد القضاة، حتى يجلس بين يدي المأمون ـ وكان المأمون يقول عنه : « لولا ما سبق لاسحاق على السنة الناس ، وشهر به من الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي ، فانه اولى به واحق واعف ، واصدق تدينا من هؤلاء القضاة » .

اخذ زرياب عن هذا العالم الاديب ، والفنان البارع ، واقتبس من ادبه وفنه . وكان اسحاق يعنى بهذا الفتى لما رآه عليه من الذكاء والفطنة وسرعة الاخذ كما انه من موالي امير المؤمنين ، فكان يحضره مجالسه التي يعقدها في داره ، والتي كانت مجمعا

لاهل الفنون والآداب ، وزرياب ينهل من كل ما يروق له ، وما يؤهله ان يخلف استاذه فى مكانته .

بذل اسحاق عناية خاصة فى تدريبه وتعليمه الاصوات التى يضعها ، والايقاعات التى يبدعها . وكان الفتى النابه ينصرف الى ما يلقيه استاذه ، ويتأمل فى اصواته ويدقق مواضع القوة فيها ، فكان فى طليعة الذين يأخذون عنه ، وهذا ما حمل استاذه على مضاعفة العناية به ، والانصراف الى تعليمه كل نادر وغريب ، حتى كان من طلابه الذين يفاخر فى تعليمهم وتهذيبهم .

كان زرياب كلما تلقى صوتا من استاذه اسحاق — او من غيره — تلقف الصوت ورردده مع نفسه حتى يتقنه ، فاذا عاد الى داره واختلى بنفسه ، اجرى على الصوت ما يبدو له اذا ما غير فى ترديده ، فلم يزل يبدل وينقح ويهذب فى الصوت ، حتى يبتكر صوتا جديدا جميلا قائما بذاته لم يسبق اليه.

وهكذا كان دابه فى كل صوت يسمعه ، او ضربات يتلقاها من شيخ المغنين اسحق الموصلي ، فانه يدخل عليهما من التعديل والابتكار ما يجعلهما من اجمل ما ابدعته قريحة هذا الفتى الناشيء .

اشتغل زرياب بهدوء وسكينة ولم يطلع احدا على ما كان يقوم به ، حتى استاذه الذى تربى بين يديه ، واخذ عنه ، فانه لم يكن يعلم ما عند زرياب من روائع الاصوات — وزرياب مستمر التردد الى استاذه ، يسترق من اصواته ، ويلتقط من ظرفه وادبه ، ويواصل التهذيب والتحسين والابتكار ، حتى صار يطمع ان يخلف استاذه فى فن مبتكر ، بل كان يطمع الى اكثر من هذا — وهو ان يبهر استاذه بما لم يسمع مثله .

اخذ زرياب يترقب اليوم الذى يباغت فيه المجتمع بفن دقيق مبتكر ، يعجز استاذه — استاذ الفن والطرب فى بغداد — عن الاتيان بمثاله ، مما حمله على حسده وتهديده بالقتل ان لم يرحل عن بغداد ، ويحافظ على منزلته التى كان عليها فى بلاط الرشيد .

— 2 —

حضر اسحاق الموصلي مجلس الرشيد ، وتشعب الحديث فى الأدب والفن ، فطلب الرشيد من اسحاق مغنيا مجيدا للصنعة . لم يشتهر مكانه اليه.

واسحاق كان يتقرب الى الرشيد بكل ما يؤنسه، ويطرفه بما عنده من اصوات وظرف وادب ، واراد ان يتحف الرشيد بأحد تلاميذه — من موالي دار الخلافة — لما كان يعرف فيه من الذكاء والفطرة وسرعة التلقي عنه . فقال اسحاق للرشيد يا مولاي: عندي تلميذ — وهو مولى لكم — اسود اللون . عذب الشمائل ، حلو التفريد ، سمعت له نزعات حسنة، ونغمات رائعة ، ماتاطة (1) بالنفس ، اذا انا وقفته على ما استغرب منها — وهو من اختراعي، واستنباط فكري ، واحدس أن يكون له شأن — فان اذن لي امير المؤمنين قدمته اليه . ولم يعلم اسحاق ان هذا الذى يتوسم فيه الذكاء والفطنة سيغني امير المؤمنين بما لم يحسنه اسحاق . وسيباغته بما وضع وابدع.

امره الرشيد باحضاره — لعل حاجته تكون عنده ، وهكذا فان الساعة التى كان يترقبها زرياب قد اتته عفوا ، فقد امر الخليفة باحضاره اليه ليغني امام استاذه الذى اخذ عنه .

اخذ زرياب يعد عوده ، واحسن ربط اوتاره ، واختار الاصوات التى سيغني الخليفة بها ، ويبز استاذه ويفوقه .

حضر زرياب مع استاذه اسحاق يحمل العود الذى قد اعده لنفسه ، وهو يختلف عن عود استاذه، ومثل امام الرشيد ، واستاذه فخور بتلميذه الذى سيغني امير المؤمنين بما استنبطه هو ولقنه اياه .

كلم الرشيد زرياب ، فأجابه زرياب بأحسن منطق واوجز خطاب ، مع فصاحة لسان وظرف وادب .

سأله الرشيد عن معرفته بالغناء ، فقال : نعم احسن ما لا يحسنه الناس ، واكثر ما احسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسن الا عندك ، ولا يدخر الا لك، فان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك .

بهت استاذه اسحق مما سمع ، ولم يكن يتوقع هذا ، فهل يجرؤ احد امام اسحق الموصلي ان

---

(1) لاصقة

يقول ما قاله هذا التلميذ الناشيء ؟ وصار يترقب سماع الصوت بدهش وعجب .

امر الرشيد باحضار عود استاذه اسحق ليغني زرياب . فلما قدم اليه وقف عن تناوله وقال : يا امير المؤمنين : لي عود نحته بيدي ، وارهفته باحكامي ولا ارتضي غيره ـ وهو بالباب ـ فليأذن لي امير المؤمنين في استدعائه . فأمر الرشيد بادخاله اليه .

تأمله الرشيد ، وكان شبيها بالعود الذي دفعه له ـ عود استاذه ـ وقال له الرشيد : ما منعك ان تستعمل عود استاذك ؟ فقال زرياب : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي ، غنيته بعوده ، وان كان يرغب في غنائي فلابد من عودي . فقال له الرشيد : ما اراهما الا واحدا .

فقال زرياب : صدقت يا مولاي ، ولا يؤدي النظر غير ذلك ، ولكن عودي ـ وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس خشبه ـ فهو يقع من وزنه في الثلث او نحوه . واوتاري من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة . وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل الاسد ، فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة اضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تاثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها . فاستبرع الرشيد وصفه واذهل اسحق ما سمع . ثم اندفع زرياب وغنى :

يا ايها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

ـ 3 ـ

سقط في يد اسحق فقد سمع من احد تلاميذه ما فيه من الروعة والاتقان والابتكار ، مما جعل امير المؤمنين يعجب به غاية الاعجاب ، ويؤكد على اسحق : انه لولا ما يعلمه عنه من الصدق لانزل العقوبة به ، اذ لم يطلعه على ما قد ابتكره هذا الفنان المبدع ـ وهل يترك اسحق الموصلي زرياب معه في بغداد يتبوأ مكانته ؟ بل يسمو فوقه فيبعده عما هو عليه ، وتكون له زعامة الغناء في دار السلام .

فلابد من ان يصارحه بما يكنه له صدره من الحسد ، وان بقاءه لا يمكن ان يكون في بغداد ، والا يؤدي به الى موته .

خلا اسحاق بزرياب وقال له : يا علي ، ان الحسد اقدم الادواء وادوؤها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من اجادتك ، وعلو طبقتك . وقصدت منفعتك ، فاذا قد اوتيت نفسي من مأمنها بادنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي ، وترتقي انت فوقي ، وهذا ما لا اصاحبك عليه ـ ولو انك ولدي ـ ولولا رعيي لذمة تربيتك ، لما قدمت شيئا على ان اذهب نفسك ، يكون في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لابد لك منهما : اما ان تذهب عني في الارض العريضة ، لا اسمع لك خبرا ، بعد ان تعطيني على ذلك الايمان الموثقة ، وانهض بذلك لما اردت من مال وغيره ، واما ان تقيم على كرهي ورغمي مستهدفا الي ، فخذ الآن حذرك مني ، فلست والله ابقي عليك ، ولا ادع اغتيالك باذلا بذلك بدني ومالي ، فاقض قضاءك .

خرج زرياب وهو يفكر بالامر ، فهو يعلم ان استاذه لا يحجم عن قتله اذا اقام في بغداد ، ولابد له من الرحيل عنها في بلاد الله الواسعة ـ وعلى هذا عاد الى استاذه وابدى له رغبته في الرحيل عن بغداد ، والتوجه الى بلاد المغرب بعيدا عن اسحاق وبغداد ـ هذا روع اسحاق وزال عنه ما كان في قلبه من هم ، وساعد زرياب بما يحتاجه من مال .

وبعد ايام فرغ الرشيد من شغل كان منغمسا فيه ، واشتاق الى سماع اصوات زرياب ، فأمر اسحاق الموصلي باحضاره .

واسحاق من دهاة عصره ، قد ارضى الخليفة ورجال دولته في تصرفه ورجاحة عقله ، فهل يعجز عن اجابة الخليفة بما يصرفه عن زرياب ؟

قال اسحاق : ومن لي به يا امير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون ، يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى في الدنيا من يعدله ، وما هو الا ان ابطات عليه جائزة امير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به ، والتهوين بصناعته ، فذهب مغاضبا ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عني ، وقد صنع الله تعالى في ذلك لامير المؤمنين ، فان كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه .

سكن الرشيد الى ما قاله اسحاق ، وقال : على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير .

وهكذا تمكن اسحاق من صرف زرياب عن بغداد ، وصرف الرشيد عن زرياب ، وصرف الهم عن قلبه .

— 4 —

نسي امر زرياب في المشرق ، ولم نقف على ذكر له بين المغنين الذين نبغوا في العصر العباسي . ومع أن ابا الفرج الاصفهاني ترجم في كتابه (الاغاني) لاصحاب الاصوات الذين عانوا صناعة الغناء في الشرق ، فانه لم يتطرق الى ذكر زرياب والاصوات الجميلة التي وضعها — ذلك لأنه اول نبوغه هدد بالقتل ان لم يرحل عن بغداد — فرحل الى بلاد واسعة، ووجد أهلا غير أهله ، واقبالا لم يكن يتوقعه، فكان زعيم الغناء في الاندلس والمغرب — كل هذا ولم يدون اهل بغداد ما ابدعه فتى اسحاق الموصلي الذي خرج من بغداد خائفا يترقب .

توجه زرياب الى الشام ، ومنها الى مصر ، ومنها ركب البحر قاصدا المغرب ، ولما وصل تونس اتصل بزيادة الله بن الاغلب (201 — 208 هـ) وحظي عنده ، فكان يحضر مجالسه ، ويشارك بما يدور فيها من أدب وفن ، ويغنيه ، فأعجب به ابن الاغلب وقربه اليه .

وفي احد الايام من سنة 206 هـ طلب ابن الاغلب من زرياب أن يغنيه ، فغناه بأبيات لعنترة الفوارس :

فان تك امي غرابية
من ابناء حام بها عبتني

فاني لطيف ببيض الظبا
وسمر العوالي اذا جئتني

ولولا فرارك يوم الوغا
لقدتك في الحرب او قدتني

ففضب ابن الاغلب من تعريضه هذا ، وامر بصفع قفاه ، واخراجه من عنده ، وقال له : ان وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة ايام ضربت عنقك .

ولا نعلم سببا لتعريضه بالامير الاغلبي ، وزرياب من اذكياء عصره ، فطن دقيق الملاحظة ، فهل كان هذا هفوة من زرياب ؟ او خاطر خطر له ؟ وربما كان لامر في نفسه — وعلى كل فقد بدر منه ما اغضب ابن الاغلب ، واوجب خروجه من تونس قاصدا بلاد الاندلس .

— 5 —

وكان اهل الاندلس يتطلعون الى ما في الشرق من حضارة زاهية ، وعلم وادب وفن ، وجدوا في الاستفادة مما عند القوم ، فرحل الكثير من اهل الاندلس الى بلاد الشرق ، واخذوا عن علمائه وادبائه، وتعلموا فنونه وصناعاته ، ورجعوا الى بلادهم ينشرون ماحملوه معهم .

كما رغب الامراء الامويون بنوابغ اهل الشرق، وشوقوهم بالرحلة الى بلادهم ، وبذلوا لهم الاموال الوافرة ، وقدموا لهم كل مساعدة ، ليستفيدوا من علمهم وفنهم . وكانوا يبذلون الاموال في الحصول على ما يستجد في الشرق من كتب قيمة . فقد بذل الامير الحكم لابي الفرج الاصفهاني الف دينار قيمة نسخة من كتابه الاغاني قبل ان ينتشر في الشرق .

هذا الاقبال من اهل الاندلس حمل العلماء وارباب الفنون ان يمموا شطرها ، ويرحلوا اليها ، وينشروا علومهم ومعارفهم فيها . فرحل عدد منهم الى الاندلس ، ونالوا من امرائها واهلها من الحفاوة والاحترام والاموال الوافرة ، ما حملهم ان يستقروا في هذا البلد الطيب ، واثروا آثارا حسنة في التدريس والمحاضرة والتاليف .

كتب زرياب الى الامير الحكم بن هشام ، يعلمه بمكانته في الغناء ، ويعرض عليه التوجه اليه . فسر الحكم بهذا ، وكتب اليه مرحبا به ، وارسل لاستقباله وتدبير سفره مغنيه منصور اليهودي .

ولما كان في الجزيرة الخضراء ، بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى بلاد العدوة ، فثناه عن ذلك رسول الحكم ، وبين له شغف عبد الرحمن بن الحكم بالغناء والموسيقى . ورفع منصور اليهودي امر زرياب الى عبد الرحمن يعلمه بمكانته ، وعبد الرحمن هذا من اكثر الامراء الاندلسيين شغفا بالآداب والفنون والغناء . يحضر مجلسه العلماء والادباء وارباب الفن — وخاصة المغنون والموسيقيون — وهو يجزل لهم العطاء . سر عبد الرحمن بخبر زرياب ، وكتب اليه يعلمه بتطلعه اليه ، والسرور بقدومه عليه ،

ويمنيه ويرغبه . كما كتب الى عماله على البلاد التى سيمر بها زرياب ، ان يحسنوا اليه ، ويقدموا اليه كل ما يحتاجه ، ويوصلوه الى قرطبة .

وارسل الى احد اكابر مواليه ان يتلقاه ببغال وآلات حسنة . دخل زرياب قرطبة ليلا ـ صيانة لحرمه ـ وامر الامير ان ينزلوه فى دار جميلة من احسن الدور ، وان يحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وان يحملوا اليه الخلع .

وبعد ثلاثة ايام استدعاه ، ورحب به اجمل ترحيب ، ودعاه الى تناول الطعام معه ، مع اولاده الكبار ، وامر ان يفرض له ولاهله من الرواتب والخلع ما يقدر بآلاف الدنانير سنويا ، واقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوم بأربعين الف دينار سنويا .

وزرياب قد اعد نفسه لمثل هذا اليوم الذى كان يترقبه ، فهو فى كنف امير معجب به ، مشغوف الى سماعه ، فأبدع فى الاصوات التى كان يغنيه بها ، فما ان سمعه عبد الرحمان حتى استهواه ، واحبه حبا شديدا ، واطرح كل ما سواه من المغنين ، وادناه من مجلسه ، وامر بفتح باب خاص لزرياب يستدعيه منه متى اراده . وزرياب قد جمع الى ما امتاز به من الغناء ، عدة مزايا رفيعة : كان شاعرا عارفا بفنون الأدب ، ونطف المعاشرة والظرافة ، وعنده من آداب المجالسة ، وطيب المحادثة ، ومهارة الخدمة الملوكية ، مالم نجده عند غيره من اهل صناعته .

كيف لا يجمع زرياب هذه الصفات الجملية ، وهو الذى تربى فى بلاط العباسيين ، وتقلب فى نعيمهم ، وتنقل فى جنائنهم وخمائلهم ، وحضر مجالسهم ، ولازم اعالي القوم فى العلم والادب والفن ـ ربيب المهدي العباسي ، وتلميذ اسحاق الموصلي ، وخريج مدرسة بغداد دار العلم والحكمة والفن . هذه الخصال اثرت فى اهل الاندلس ، حتى اتخذه ملوكهم وخواصهم قدوة حسنة فيما سنه لهم من قواعد وآداب ، واستحسنه من أطعمة وثياب ، وما ابتكره من عطور ـ وبقي أثر هذا فيهم الى آخر ايام اهل الاندلس منسوبا اليه .

وهكذا انقادت الدنيا لزرياب ، فقد كان مرجع القوم في الغناء وفى التأثيرات الاجتماعية ، تسمع كلمته فى البلاط الاموي ، وينقاد اليه سراة القوم ووجهاؤهم ، يبذلون له العطاء ويتوقعون رضاه ، حتى قالوا : يؤثر على بلاط الامير عبد الرحمن اربعة اشخاص : فقيه : يحيى بن يحيى الليثي ، وموسيقي: ابو الحسن زرياب ، وامراة : السلطانة طروب ، وخصي : نصر .

ومع انه كان مسموع الكلمة فى البلاط الاموي ، الا ان عقله منعه عن التدخل فى شؤون سياسة البلد ، وتركها لغيره .

صرف نفسه الى فنه الذى كان سبب ظهوره ونبوغه ، لانه علم حق العلم ان خير طريق للنجاح فى الحياة هو تجنب ما لا نصيب له فيه ، والانصراف الى فنه الرفيع الذي ينقاد اليه الامير ورجال سياسته ، على اختلاف ميولهم ورغباتهم ـ وعلى هذا فلا نرى له ذكرا فى الحوادث السياسية ، التى كانت على عهده ، فهو مغني البلاط وكفى .

انصرف زرياب الى الغناء والابتكار فيه ، وشغل بهذا كل مواهبه وقابليته ، واطلع على ما فى الاندلس من الحان ، اخذ بعضها عن سكان البلاد الاصليين ، فكانت هذه عاملا جديدا فى تطعيم الاصوات التى يبتكرها ، كان الغناء قد شغل كل وقته حتى اذا رقد فى منامه ، فانه كان يواصل تفكيره فى الاصوات المختلفة ، والاشعار التى تناسب كل لحن يغنيه ، فلم تنقطع سلسلة افكاره عن هذا الفن الجميل . فاذا آوى الى فراشه واهتدى الى لحن جديد ، او شعر جميل ، هب من نومه مسرعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهنيدة ، فتأخذان عوديهما ، ويأخذ هو عوده ، ويطارحهما ليلته ما اهتدى اليه من لحن ، ويكتب الشعر الذى نظمه ، حتى اذا اتقنتاه عاد الى فراشه .

وعلى هذا قال عنه معاصروه : ان الجن كانت تطارحه الالحان ليلا فيتعلمها . وما الجن الا شغفه بهذا الفن الرفيع الذى كان قد اخذ عليه كل وقته ـ حتى عند النوم فانه كان يحلم فى ترديد الاصوات وترجيعها ، هذا هو الالهام الفني ـ جنون الفن ـ وهو ما قيل عن كثير من الشعراء والفنانين الموهوبين الذين يبدعون فى شعرهم وفنهم . وكم ذكروا ان للشعراء شياطين يوحون اليهم زخرف القول ، فياتون بما لم يات به غيرهم . وما شياطينهم الا

انصرافهم الى الشعر وكثرة تفكيرهم فى محاسنه واوزانه ، وروائعه ، فيأتون بما لم يتهيأ لغيرهم .

— 6 —

كان لزرياب معهد يقصده اصحاب الحناجر الرخمة، والاصوات الجميلة ، يتلقون عنه الالحان ، وما ابدعه من الاصوات والايقاعات .

ولم يكن زرياب يقبل احدا فى معهده ، الا بعد ان يقف على نبرات صوته ، وصلاح حنجرته ، وقابليته الى تلقي الالحان والاصوات ، وعلى هذا فقد كان يختبر من يقصده للأخذ عنه — وقد حدثنا المقري عن كيفية اختباره لمن يقصده فقال :

« وكان اذا اراد ان يختبر المطبوع الصوت — المراد تعليمه — من غير المطبوع ، امره أن يصيح بأعلى صوته : يا حجام . او يصيح : آه . ويمد صوته ، فاذا سمع صوته بهما صافيا نديا قويا مؤديا لا يعتريه غنة ولا حبسة ، ولا ضيق نفس ، عرف انه سوف ينجب ، واشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك ابعده .

وهكذا بعد ان يختبر من يقصده ، ويتحقق صلاحه ، يسلمه الى الذين يأخذون عنه ، فيتعهدون تدريبه تدريبا اوليا ، حتى اذا وقف على مباديء هذا الفتى الجميل ، تعهده بنفسه مع الذين يأخذون عنه . فاذا حضر التلميذ عنده للأخذ عنه ، كان يرشده الى كيفية الجلوس ، وطريقة اخراج الصوت من الفم ، والطرق التى يحسن بها نبرات صوته ، بحيث يجعله يناسب اللحن والايقاع اذا ما غنى .

قال المقري فى هذا :

« وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه، امره بالقعود على الوسائد المدورة المعروفة بالمسورة ، وان يشد صوته جدا — اذا كان قوي الصوت — فان كان لينه ، امره ان يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج عن الفم . فان كان الص الاضراس ، لا يقدر ان يفتح فاه ، او كانت عادته زم اسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالي حتى ينفرج فكاه ، وهو رأي عالم بنبرات الاصوات ومخارجها ، وما يساعد على تهذيبها واظهارها بصورة جلية .

اخذ عن زرياب اولاده وكثير من اهل الاندلس رجالا ونساء، ونشروا فنه فى طول الاندلس وعرضها، فكانوا دعاة نهضة فنية ، طغت على الاندلس ، وتعدتها الى شمال افريقية ، وطبعتها بطابع الالحان التى ابدعها زرياب . بقيت هذه النهضة الى القرن الثامن للهجرة ، وهي تسير على القواعد التى وضعها زرياب والالحان التى ابتكرها وابدع فيها ، مما جعل ابن خلدون يقول عن تأثير غنائه :

فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ، ما تناقلوه الى ازمان الطوائف ، وطما منها باشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على انصارها ، وبها الآن صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها .

ومن اخذ عنه وبرز فى الغناء اولاده العشرة (1):

1 — عبيد الله كان خليفة والده ، واعلا اخوته فى الغناء .

2 — عبد الرحمان : وهذا يلي عبيد الله فى الغناء ، وكان يشوب علمه تيه وزهو وكثرة العجب بفنائه ، وهذا مما سبب له مشاكل كثيرة فى مجالس الغناء التى كان يقيمها (2) ، ويذكر ابن خلدون ان عبد الرحمن هذا خلف والده فى هذه الصناعة ، ولربما عمر اكثر من عبيد الله ، فكان المرجع اليه فى الغناء .

3 — اما محمد بن زرياب فكان مؤنثا .

4 — واما القاسم بن زرياب : فكان احذقهم غناء مع تجويده .

5 — واما احمد بن زرياب : فكان قد غلب عليه الشعر .

---

(1) كان لزرياب اربعة اولاد يوم دخل الاندلس ، وهم : عبد الرحمن وجعفر ، وعبيد الله ويحيى . وولد له فى الاندلس اربعة بنين : محمد وقاسم واحمد وحسن ، وبنتان : علية وحمدونة .

(2) نفح الطيب : 4 : 125 .

6 ـ واما حمدونة بنت زرياب: فكانت متقدمة فى اهل بيتها ، محسنة لصناعتها ، تزوجها الوزير هشام بن عبد العزيز .

7 ـ اما علية بنت زرياب : فطال عمرها بعد اختها حمدونة ، ولم يبق من اهل بيتها غيرها ، فافتقر الناس اليها ، وحملوا عنها ، فكانت مرجعا للمعهد الزريابي ، يقصدها اهل الفن ، ويأخذون عنها .

ومن جواريه :

1 ـ مصابيح : جارية الكاتب ابي حفص عمر بن قلهيل ، وهي ممن اخذ عن زرياب ، وصارت غاية فى الاحسان والنبل وطيب الصوت .

مر ابن عبد ربه (3) فسمع غناءها ، واشتاق ان يدخل اليها فأبى مولاها . فمال ابن عبد ربه الى مسجد قريب من المكان ، واخذ لوحا من صبي وكتب هذه الابيات وارسلها الى مولاها :

يا من يضن بصوت الطائر الفرد
ما كنت احسب هذا الضن من احد

لو ان اسماع اهل الارض قاطبة
اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلا تضن على سمعي مقلده
صوتا يجول مجال الروح فى الجسد

لو كان زرياب حيا ثم اسمعه
لذاب من حسد، او مات من كمد

اما النبيذ فاني لست اشربه
ولست آتيك الا كسرتي بيدي

فلما قراها مولاها ، خرج اليه حافيا ، وادخله مجلسه ، وتمتع ابن عبد ربه من سماعها .

2 ـ متعة : جارية زرياب ، اعتنى فى تاديبها وتعليمها احسن اغانيه ، وشبت رائعة الجمال ، وتصرفت بين يدي الامير عبد الرحمن بن الحكم ، تغنيه مرة، وتسقيه اخرى، وكان الامير معجبا بجمالها وبصوتها ، فلما فطنت لاعجابه بها ، ابدت له دلائل الرغبة ، ولكنه ابى الا التستر ، فنظمت هذه الابيات وغنته بها :

يا من يغطي هواه
من ذا يغطي النهارا ؟

قد كنت املك قلبي
حتى علقت فطارا

يا ويلتاه اتراه
لي كان ، او مستعارا ؟

يا بابي قرشي
خلعت فيه العذارا

فلما انكشف لزرياب امرها ، اهداها الى الامير عبد الرحمن ، وحظيت عنده .

3 ـ اما هنيدة وغزلان فقد تقدم الكلام عنهما .

ومما اجراه على العود فى الاندلس :

1) كانت اعواد القوم ذات اربعة اوتار ، فاضاف هو اليها وترا خامسا ، واتخذ الاوتار من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها انائة ورخاوة وقد تقدم الكلام عنها .

2 ـ كانت الاعواد ثقيلة الوزن ، تجهد الضارب، وربما عاقته عن تأدية الضرب كما يهوى ، فجعل زرياب عوده صغير الحجم ، خفيف الوزن ، جميل الشكل ، دقيق الصنع ، يستهوي النفس ، ويمثل جمال الالحان التى يضربها زرياب .

3) كانت مضارب العود من خشب ، ثقيلة على الانامل ، تؤثر فى الاوتار عند الضرب ، وربما قطعتها او افسدتها فى ايام معدودة . فعدل عنها زرياب بأن اتخذ المضرب من قوادم النسر : خفيف على الانامل ، رفيق بالاوتار ، ليس فى اليد ، مرن الاستعمال ، يحدث اهتزازات فى الاوتار ، ما لم تحدثه المضارب الخشبية الصلبة .

ومما سنه فى الغناء : ان كل من افتتح الغناء يبدأ بالنشيد اول شدوه باي نقر كان، ويأتي اثره بالبسيط، يختم بالمحركات والاهزاج تبعا لمراسيم زرياب .

ذكر المؤرخون ان اسلم بن احمد بن سعيد الف كتابا فى الاصوات التى وضعها

(3) صاحب « العقد الفريد » .

زرياب ، ومما يؤسف له ، اننا لم نقف على ذكر لهذا السفر النفيس ، الذى جمع روائع الفن وما ابتكره زرياب من اصوات جميلة ، وما نظمه من شعر يغنى به . فان هذا الكتاب كان يطلعنا على الحان رائعة ، واصوات مبتكرة ، ابدعتها قريحة زرياب ـ طمست مع افول شمس العرب فى الاندلس ، ولم يبق منها ، الا صبابة تذكرنا بما كان من التأثير القوي فى الغناء الاندلسي الذى قرر قواعده ، معلم الناس الفن والمروءة (زرياب) .

زرياب من نوادر عصره ، جمع ـ الى تفوقه فى الغناء ـ علوما وفنونا وآدابا . ذكروا عنه انه كان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها ، وهذا ما ساعده على حل كتاب الموسيقى لبطليموس ، لان هذا العدد هو غاية ما ذكره بطليموس ـ واضع هذه العلوم ومؤلفها ـ فى كتابه .

كان زرياب شاعرا ، ويمتاز شعره بالرقة والعذوبة ، كيف لا يكون شعره رائقا ، وقد صدر عن شيخ المغنين صاحب الاصوات المبتكرة البديعة ؛ والالحان التى لم يزل تأثيرها فى الشرق والغرب . ومن شعره :

علقتها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله ايام لنا سلفت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيم غير ان كانت قصيره

وقوله ايضا :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني
حمام تداعت فى الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كل ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

كان عالما بالنجوم واحكامها ، يعرف الاقاليم السبعة وما فيها من عوارض طبيعية ، ومدن وعمران، وما فى هذه من سكان وخيرات ، ويعرف طبائع وميول سكانها ، وما تشتهر به كل مدينة ، فاذا تكلم بهذا تكلم عن علم ومعرفة .

لم يقتصر تأثير زرياب على اهل الاندلس فى الغناء فقط ، بل كان له تأثير كبير على الحياة الاجتماعية فيها : الطعام والازياء وتصفيف الشعر وابتكار عطور وادهان وغير ذلك .

ففى الطعام وما يتبعه من لوازم :

1 ـ كان زرياب اول من اجتنى بقلة الهليون المسماة بلسانهم بالاسفراج ، ولم يكونوا يعرفونها قبله .

2 ـ وعلمهم زرياب طبخ النقايا ، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة ، محلى بالسنبوسق والكباب ، ويلي هذا عندهم لون التقلية المنسوبة اليه «زريابية».

3 ـ كان الاندلسيون يتخذون الآنية الرفيعة الثمن ، ويحلونها بالذهب والفضة ، ويتنافسون فى هذا ، فاتخذ زرياب آنيته من الزجاج الجميل ، فقلده الاندلسيون فى هذا .

4 ـ فضل زرياب استعمال سفر الاديم على الموائد الخشبية لتقديم الطعام ،لان الوضر يزول عن الاديم باقل مسحة ، فأخذ الاندلسيون بهذا .

5 ـ كان زرياب يفضل فرش الانطاع الاديمية الناعمة اللينة على ملاحف الكتان ، فانتشر هذا فى الاندلس .

واما تأثيره على الازياء فى الاندلس : فانه راى ان يلبس كل صنف من الثياب فى زمانه الذى يليق به . فيكون ابتداء الناس بلباس البياض . ثم يلبسون الملون من يوم مهرجان اهل البلد المسمى عندهم « بالعنصرة » الكائن فى ست بقين من شهر يونيو (حزيران) ، الى اواخر شهر اكتوبر (تشرين الاول). وان يلبسوا بقية السنة الثياب الملونة .

ورأى ان يلبسوا فى الفصل الذى بين الحر والبرد المسمى عندهم « الربيع » من مصبغهم جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التى لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البياض .

وكذا راى ان يلبسوا فى آخر الصيف وعند اول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ، ذوات الحشو والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد فى الغدوات ، الى ان يقوى البرد ، فينتقلون الى اثخن منها من الملونات ، ويستظهرون من تحتها اذا احتاجوا الى صنوف الفراء .

واما تاثيره على تصفيف الشعر : دخل الاندلس وجميع من فيها ــ من رجل او امراة ــ يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين ، فلما راوا تحذيفه هو وولده ونساءه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتدويرها الى آذانهم ، واسدالها الى أصداغهم ــ هوت اليه انفسهم ، فاستحسنوه وقلدوه .

وابتكر ادهانا ومعاجين لطيفة وروائح عطرية تزيد من جما لالبشرة وتكسبها رونقا وبهاء .

كان ملوك الاندلس والمترفون يستعملون ذرور الورد وزهور الريحان وما شاكل ذلك من ذوات القبض والبرد لطرد الصنان والروائح الكريهة ، فلا تسلم ثيابهم من وضر . فدلهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها ، فجربوه وحمدوه على ذلك .

هذا تاثير زرياب على اهل الاندلس ، فقد كان عاملا قويا فى تهذيب اغانيهم وتنسيق ثيابهم ، وتهذيب طعامهم وآنيتهم وآدابهم الاجتماعية ، فهو قدوة القوم فى كل ما يصدر عنه . وعلى هذا فان اهل الاندلس احلوا زرياب بالمحل اللائق به، وبخدماته الجليلة التى سنها لهم . فقد حظي فتى اسحاق الذى ترك بغداد مكرها من الغنى والترف والعزة ، ما جعله مضرب المثل فى الاندلس ، ويتعداها الى شمال افريقية ، ويتجاوزها الى بلاد الشرق . ومن ذلك ما رواه الصابي فى كتابه الهفوات النادرة قال : (ص : 385 ــ 386)

حدث علوية المغني قال: كنت مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا الى دمشق ، وطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بني امية ويتتبع آثارهم ، فدخل صحنا من صحونها ، فاذا هو مفروش بالرخام الاخضر كله ، وفيه بركة ماء يدخلها ويخرج منها من عين تصب اليها و ... واقبل المأمون علي فقال : غنني ونشطني ، فكأن الله عز وجل انساني جميع ما احفظه الا هذا الصوت :

لو كان حولي بنو امية لم
ينطق رجال اراهم نطقوا

فنظر الي مغضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى بني امية ، ويلك قلت لك سرني ام سؤني ، الم يكن لك وقت تمدح فيه بني امية الا هذا الوقت ؟

فتجلدت عليه ، وعلمت اني قد اخطأت ، فقلت: اتلومني على ان اذكر بني امية ، هذا مولاكم زرياب عندهم يركب فى مائتي غلام مملوك له ، ويملك ثلاثمائة الف دينار وهبوها له ، سوى الضياع والخيل والرقيق وانا عندكم اموت جوعا .

هذا هو زرياب الذى ترك بغداد مكرها ، وعاش فى الاندلس مترفا مكرما ، وصار مضرب المثل فى الشرق والغرب .